سابق البربري

شاعر من المغرب عاش في الشام

— ١ —

أبو سعيد بن عبد الله ، هكذا كناه ونسبه في تاج العروس وقال : روى عن مكحول وروى عنه الأوزاعي . فهو إذاً من تابعي التابعين ، وممن سكن دمشق ، إذ أن مكحول دمشقي والأوزاعي هو إمام أهل الشام . ويأتي في أخباره مع عمر بن عبد العزيز ما يؤكد ذلك .

ولما ذكر في الذخيرة السنية أن زِناتة تنتسب إلى بَرّ بن قيْس عَيْلان قال : وفي ذلك يقول سابق المَطْماطي حين قتال البربر للرّوم بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك .

أيا معشرَ الرُّوم ارحَلوا عن بلادكم ... وخلّوا لنا عنها بِطيّ المراحل
فقد قصدتكم بَرْبَرٌ بسيوفها ... وأحلافِها أهلِ الرِّماح الذوابل
قبائلُ من بَرّ بنِ قَيْس وخِنْدف ... وذي يمَن في عزّها المتطاول

ومعلوم أن مَطْماطةَ إحدى قبائل زِناتة ، وزِناتةُ من البربر . فهل أن سابق البربري هو المطماطي ؟

أما العصر فهو عصر واحد . وأما الشعر فهو ما اشتهر به صاحبنا ، وزيادة على ذلك فان نسْج هذه الأبيات يوافق المنوال الذي نُسِجت عليه جميع أشعاره التي سنرويها بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الذي يُشوِّش علينا في جعلها شخصاً واحداً ، هو أن ابن خلدون يذكر في عِـدادِ قبيلة مطماطة سابقَ بنَ سليمان بن حراث كبيرَ نسَّابة البربر . وينقل عنه كثيراً . وكذا يذكره الرَّيَاني في رحلته ، ويُفهَم منه أنه وقف على كتابه في تلمسان ، وإن كان اسمه عنده يقع فيه تخليط . وعلى كل حال فهو من مطماطة كما نسبه صاحبُ الذخيرة ، وهو عالم بالأنساب كما تقضي بذلك أبياته التي أوردناها في نسبة القبائل البربرية إلى برِّ بن قيس ولا يختلف عن صاحبنا في شيء إلا أن هذا هو ابنُ عبد الله والآخر هو ابنُ سليمان . . ومع ذلك فلم نر من وصف صاحبَنا بأنه نسابةُ البربر ، أو أن له كتاباً في هذا الموضوع ، خاصةً وان زمانه كان سابقاً عن وقت تأليف الكتب في الجملة .

وقد اشتهر صاحبُنا بقول الشعر والإجادة فيه بحيث سارت بعضُ أقواله سيْرَ الأمثال ، ومنها هذان البيتان :

قد ينفع الأدبُ الأبناءَ في صغر ... وليس ينفعهم من بعـده الأدبُ
إن الغصون إذا عدَّلتها اعتدلت ... ولا يلينُ ولو ليَّنته الخَشَبُ

نسبها إليه غير واحد .

والمعتقَدُ أن له ديواناً شعرياً يحتوي جميعَ ما قاله في الأدب والأخلاق والحكم والمواعظ ، إذ هي المواضيع الغالبة على شعـره ، ولم نقف له على شعر في غيرها باستثناء الأبيات الثلاثة السابقة ، وبيت غزلي نسبه إليه في الكشاف غلطاً وهو لجرير .

وهاك ماجاء في فهرست ابن خير دليلا على ماذكر :

« أخبار سابق البربري وأشعاره » حدثني به القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله قال أنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي ، قال قُرِئَ على أبي عمر محمد بن العباس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن زكريا بن حيوية قال قرئ على أبي الحسن أحمد بن جعفر بن محمد من كتابه هو يسمع ، وأنا أسمع فأقرّ به ، قال كان سابق البربري فذكر أخباره وقصيداً واحداً ثم قصائده بروايات مختلفة ، قال ابن العربي تقيّدتْ في مواضعها عندنا والحمد لله ،) ولا يوجد هذا الكتاب الآن أو على الأصح لانعرف عنه خبراً ، ومن المؤسف حقاً أن يضيع هذا الأثر الأدبي النفيس لشاعر ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي بقول الشعر في لغة الضاد والإجادة فيه ، وهذا النبوغ المبكر ، على أثر اتصال البربر بالعرب إن دل على شيء ، فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشّعب العربي ، وصِدْق النسّابة الذين يُرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطانية . وما أصدقَ ما ينسب إلى تُماضر بنتِ قيس عيلان تَرْثي أخاها بَرّاً . وتذكُر بُعدَه عن وطنه :

كأني وبَرّاً لم تعزّ ديارُنا ... بنجد ولم نقسِم نهابا ومغنَما
وشطّت ببَرّ دارُه عن بلاده ... وطوّح برٌّ نفسه حيث يمّما
وأزرت ببَر لُكْنةٌ أعجمية ... وما كان بَرّ في الحجاز بأعجما

نعم لقد استعجم بَرّ لما غاب عن بلاده وتوحّد في ديار الغُربة ، وهاهو لما اجتمع ببني أبيه وأخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتّق لسانُه في أسرع ما يكون بلغة الضاد . ويُصبح سابقٌ بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه ، وطارقٌ من أفصح خطبائهم . ولماذا لا يكون ذلك : وإسماعيلُ أبو العرب المستعربة يُمثّل لنا نفسَ القصة ، وإنما يعرضها عرضاً معاكساً لقصّة بَرّ ؟

أما إنه قد آن لنا أن نهتم جدياً بالمسألة ، ونعرض قضيةَ عُروبة البربر على الباحثين النفسيين ونحلل هذه اللهجات البربرية تحليلاً فلولوجياً فلا يمكن أن يكون هذا التعلّق الشديد بالعرب ، وهذا البيانُ المُعرِب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بلغتهم ظاهرتيْن عاديتَيْن لا ترجمان إلى عناصر نفسية وأصول لغوية متحدة أو مشتركة . وإلاّ فلماذا لا يعتزّ الفارسي مثلاً إلاّ بأصله ، ولم تكن إلاّ كلاَ ولا ، حتى عاد إلى فهلويته يُمكّن لها في بلاده بعد أن كان بلغ في العربية شأواً لا يُلحق ، على حين أن البربري ، في عنفوان مجده وإقبال دولته لا يَحيد عن الانتماء إلى الأصول العربية التي يعتقد أنه مُنحدِر منها ، وما يزال كذلك إلى الآن يُدلّ بعروبته ويرفع من شأن عَربيته ؟..

المسألة مهمة جدّاً فليُنظَر فيها بجد ...

ونعود فنروي بعضَ ماوقفنا عليه من شعر صاحبنا سابق ، في مطالعاتنا طول عدة سنين . وهو جملة من القصائد والقطع النّفيسة في الأدب والأخلاق نزفّها إلى الناشئة المغربية على أنها أثر من الآثار الأدبية الرفيعة التي أنتجها أبناء هذه البلاد الخصبة ، وإنْ كان بعضهم ما يزال يتشكك في أن لبلاد المغرب أدباً .

قال سابق يُزهّد في الدنيا وهي مما أنشده له الجَرّاوي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية :

النفسُ تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمت ... أن السلامة منها تركُ ما فيها
واللهِ ما قنعت نفس بما رُزِقت ... من المعيشة إلاّ سوف يكفيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورُنا لِخراب الدهر نبنيها
قِسْ بالتجارب أحداثَ الزمان كما ... تَقيسُ نعلا بنعل حين تَحذُوها
والله ماعبَرت في الأرض قاطرةٌ ... إلاّ وصَرْفُ الليالي سوف يُفنيها

ومما أنشده له الشّريشي في شرح المقامات ، ولعله هو والأبيات قبله من قصيدة زُهْدية طويلة :

نلهُو ونأمُل أياماً تُعدّ لنا ... سريعةَ المَرّ تطوينا وتطويها
كم من عزيز سيلقَى بعد عزته ... ذلاً وضاحكةٍ يوماً ستبكيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وللحتوف تُربّي كلَّ مرضعة ... وللحساب يَرى الأرواحَ باريها
لا تبرح النفسُ تُنعَى وهي سالمة ... حتى يقوم بنادي القوم ناعيها
ولن تزال طَوال الدهر ظاعنةً ... حتى تُقيم بوادٍ غير واديها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال ولعلَّه من هذه القصيدة أيضاً :

أين الملوك التي عن خَطْبها غَفَلَت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
غُرَّت زمانا بملك لا دوام له ... جهلا كما غَرَّ نفساً مَنْ يُمنّيها
وصبَّحت قومَ عاد في ديارهم ... بمُفظِع يوم عادتهم عواديها
وتُبَّعاً وثمودُ الحِجْر غادرهم ... ريبُ المنون رميماً في مغانيها
فكيف يبقي على الأحداث غابرُنا ... كأننا قد أظلتْنا دواهيها

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعاريض :

تَعاوَنْ على الخيرات تظفَرْ ولا تكن ... على الإثم والعدوان ممن يُعاوِنُ
وداهِنْ إذا ماخِفتَ يوماً مُسلَّطاً ... عليك ولا يحتال من لا يُداهِنُ
ولا تكُ ذا لوْنَيْن يُبدِي بَشاشة ... وفي صدره ضَبٌّ من الغِلِّ كامِنُ

وقال في اتباع الهوى ، ولعلها من تتمة الأبيات قبلها :

وهجرُ الهوى للمرءِ ـ فاعلم ـ سعادةٌ ... وطولُ الهوى رَيْنٌ على القلب رائنُ
فكن دافِناً للشر بالخير تسترح ... من الشر ، إن الخير للشر دافِن

وقال ولعلها منها أيضاً :

فحتى متى تلهو بمنزل باطل ... كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطِنُ
وتجمع مالا تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازِنُ

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد :

وإن جاءَ مالا تستطيعان دفعَه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرَا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأنشد له البُحتري في حماسته هذه الأبيات الأربعة مفردة :

استخبر الناس عما أنت جاهلُه ... إذا عَميت فقد يجلو العَمى الخبرُ

* * *

وفي البحث قِدْماً والسؤال لذي العمى ... شفاءٌ وأشفى منهما ما تُعايِنُ

* * *

إن عبتَ يوماً على قوم بعاقبة ... أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا

* * *

إذا عبتَ أمراً فلا تأتِه ... وذُو اللب مجتنبٌ ما يعيب

* * *

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال :

(ذِكرُ ما وُعِظ به عمر بن العزيز رضي الله عنه) عن أبي سليمان أحمد بن عبد الله الجواليقي قال : قال سابق البربري لعمر بن العزيز رحمه الله :

بسْم الذي أُنزِلت من عنده السُّوَرُ ... الحمدُ لله أما بعدُ يا عُمرُ

إن كنتَ تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذَر قد ينفع الحذَرُ

واصبر على القدَر المجلوب وارضَ به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدَرُ

فما صفا لامرئٍ عيش يُسرُّ به ... إلا سيتبع يوماً صفوَه الكدر

واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عَميتَ فقد يجلو العمى الخبرُ

قد يرعوي المرءُ يوماً بعد هفوته ... وتحكم الجاهلَ الأيامُ والغِيَر

إن التُّقى خيرُ زاد أنت حامله ... والبِرُّ أفضلُ شيء ناله البشر

من يطلب الجَوْر لا يظفر بحاجته ... وطالبُ الحق قد يُهدى له الظفَر

وفي الهُدى عِبَرٌ تُسقَى القلوبُ بها ... كالغيث ينضر عن وَسْميِّه الشجَر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ... ولا البصير كأعمى ما له بصر
والرشد نافلةٌ تُهدَى لصاحبها ... والغيُّ يُكره منه الوِردُ والصَّدَر
قد يُوبِق المرءَ أمر وهو يحقره ... والشيء بالنفس ينمي وهو يُحتقَر
لا يُشبع النفسَ شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر
ولا يزال وإن كانت بها سعة ... لها إلى الشيء لم تظفر به نَظر
وكلُّ شيء له حال تُغيِّره ... كما تُغيِّر لونَ اللِّمّة الغِيَر
والذكر فيه حياةٌ للقلوب كما ... يُحيي البلادَ ، إذا ما ماتت ، المَطَر
والعلمُ يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجلِّي سوادَ الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً ... وهل يلين لقلب الواعظ الحجر
والموتُ جِسْر لمن يمشي على قدَم ... إلى الأمور التي تُخشَى وتُنتظر
فهم يمرُّون أفواجاً وتجمعهم ... دارٌ إليها يصير البدوُ والحضر
من كان في مَعقِل للحِرْز أسلمه ... أو كان في خَمَر لم يُنجه الخَمَر
حتى متى أنا في الدنيا أخو كُلَف ... في الخدِّ مني إلى لذَّاتها صَعَر
ولا أرى أثراً للذكر في خلَدي ... والحَبْلُ في الحجر القاسي له أثر
لو كان يُسهِر عيني ذكرُ آخرتي ... كما يُورِّقني للماجل السهَر
إذاً لداويتُ قلباً قد أضرَّ به ... طولُ السَّقام وهَيضُ العظم ينْجبِر
ما يلبث الشيء أن يبلَى إذا اختلفت ... يوماً على نَقْصه الرَّوْحاتُ والبُكَر
والمرءُ يصعَدُ ريْعانُ الشباب به ... وكل مُصعِدة يوماً ستنحَدِر
بَيْنا يُرى الغصن لَدْناً في أُرومته ... ريَّانَ صار حُطاماً جوفُه نَخِر
كم من جموع أشَتَّ الدهر شملَهم ... وكلُّ شملٍ جميعٍ سوف يَنتَشِر
وكم من اصيدَ سامي الطرف معتصب ... بالتاجِ نيرانُه للحرب تستعر
يظَلُّ مفترش الديباج محتجبا ... عليه تُبنى قِبابُ الملك والحُجَر
قد غادرته المنايا وهو مُستلَب ... مُجدَّل تَرِبُ الخدَّيْن مُنعفِر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبعدَ آدمَ ترجُونَ البقاء وهل ... تبقى فروع لأصل حين يَنْقَعِر
لكم بيوتٌ بمُستَنِّ السيُول وهل ... يبقى على الماء بيت أسُّه مَدَر
إلى الفَنَاء وإن طالت سلامتُهم ... مَصيرُ كل بني أُنثَى - وإن كَثُروا
إن الأمور إذا استقبلتَها اشتبهت ... وفي تَدبُّرها التِّبيان والعِبَر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفَرٌ منها أتى سفَر
لها حلاوةُ عيش غيرُ دائمـــة ... وفي العواقب منها المُرُّ والصَّبِر
إذا قضت زُمَرٌ آجالَها نزلت ... على منازلهـــا من بعدها زُمَر
وليس يزجُركم ما تُوعَظُون به ... والبَهْمُ يزجرُها الراعي فتنزجر
أصبحتم جَزَراً للموت يقبضكم ... كما البهائمُ في الدنيا لكم جَزَر
لا تَبطَروا واهجُروا الدنيا فإن لها ... غِبّاً وخيما وكُفْرُ النعمة البَطَرُ
ثم اقتَدُوا بالأُلى كانوا لكم غُرراً ... وليس من أُمة إلاّ لها غُرَر
حتى تكونوا على منهاج أوليكم ... وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا

فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفَلِه بالموعظة والتذكير ، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألُّهِه وشاعريَّته التي خضع لها عمر بن عبد العزيز مع ما عُرف من تأبِّيه على الشعراء وامتناعه من مقابلتهم ، ولِمَ لا يخضع له عمر وهو يفتتح شعره بسم الله والحمد لله ؟ ، وقد وقفتُ على أبيات مختلفة من هذه القصيدة في مَظانّ عديدة فلا حاجة لذكرها ، وقد أتحفنا بها كاملةً الحافظ ابنُ الجوزي جزاه الله خيراً .

وأما البيت الثاني من الأبيات الأربعة التي عند البحتري فلا شك أنه من تلك القطع النونية التي أوردناها قبل ، وأنها جميعها تُكَوِّنُ قصيدة من أبدع قصائد سابق .

بقي البيتان الثالث والرابع ، ونحب أن نشير إلى أن معناهما هو ما تضمنه بيت مشهور من قصيدة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي وهو :

لا تنْهَ عن خلُق وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحب أن نشير كذلك إلى ان هذه القصيدة قد نُسبت لصاحبنا أيضاً ، كما نُسبت للمتوكّل الليثي ، وهذا البيت بالخصوص وُجد في قصيدة للأخطل . ونقل السيوطي عن تاريخ ابن عساكر أنه للطِّرِماح ، وانظر شرح شواهد المغني ، وفي البداية والنهاية لابن كثير : روى ابنُ أبي الدنيا عن ميمون ابن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز ، وعنده سابق البربري وهو ينشده شعراً فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات :

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتتـــه المنايا بغتةً بعدما هجَعْ
فلم يستطع إذْ جاءَهُ الموت بغتة ... فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقنَّعـــاً ... ولا يَسمع الداعي وإن صوتَه رفع
وقُرِّب من لحد فصار مَقيلَه ... وفارقَ ماقد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموتُ الغنيَّ لمـــاله ... ولا مُعدماً في المال ذا حاجة يدَع

وفي الأغاني قال أبو الفرج : أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي ، قال حدثنا أبو غسان قال : قال عمر بن العزيز يوماً لسابق البربري ودخل عليه : أنشدني ياسابق شيئاً من شعرك تذكرني به فقال : أو خيراً من شعري ؟ فقال هات . قال : قال أعشى هَمْدان :

وبينما المرءُ أمسى ناعماً جَذِلاً ... في أهله مُعجَباً بالعيش ذا أنَق
غِرا أتيح له من حَيْنه عرَض ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِق
ثُمَّت أضحى ضحى من غيبِّ ثالثة ... مُقنَعا غير ذي روح ولا رَمَق
يُبكَى عليه وأدنَوْه لمُظلِمة ... تُعلى جوانبُها بالترب والقلق
فما تزود ممـــا كان يجمعه ... إلاّ حنوطاً وما واراه من خِرق
وغيرَ نفحة أعواد تُشبُّ له ... وقَلَّ ذلك مِن زادٍ لمُنطلِق

فهذه الأخبار تفيدنا أولاً أنه كان مقيماً بالشام ومن ثَم كان أخذه عن مكحول الدمشقي وأخذ الإمام الأوزاعي عنه ، وثانياً أنه كان له عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عمر مكانة وقدْر ، ولذلك كان يطلب منه أن يعظه ويُنشده من شعره الحكيم ، أو من شعر غيره ، لأنه كان متحققاً من زهده وورعه وإنه لاينظم ولا يَروي إلا ما كان من قبيل ماقيل فيه (إن من الشعر لحكمة) .

ومن شعر سابق أيضاً في المِراء ومُدافعة الحق :

لاتدفعَنَّ لَجُوجاً حين تزْجُره ... إن اللَّجوج له في الدفع إغراء

وأغْضِ في حسن عفو عن بَوادِره ... فالحرُّ فيه عن الآفات إغضاءُ

وقال ولعلها من تتمة ماقبلها :

لا تُظهرنَّ لذي جهل معاتبةً ... فربما هُيِّجت بالشيء أشياء

فالماء يُخمد حرَّ النار يطفئها ... وليس للجهل غير الحلم إطفاء

وقال في ذهاب الأمم ، وربما كانت هذه الأبيات كلها من قصيدة همزية من روائع سابق :

وكيف يأمن ريبَ الدهر مُرتهَن ... بعدوة الدهر ان الدهر عدَّاءُ

القَى على الجيل من عادٍ كلاكِلَه ... وقوم هود ، فهُمْ هَامٌ وأصداءُ

وله في العفو والتسامح :

إذا ما كنت طالبَ كلِّ ذنب ... ولم تُحلِلْ أخاك عن العتاب

تباعَد مَن تباعد بعد قرب ... وصار بك الزمان إلى اجتناب

وبعدُ فهذا شاعر فحْل من أكبر الشعراء الذين يفاخر بهم هذا المغرب العربي ، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء ، وقد احتجَّ به أهلُ العربية وعلماءُ البلاغة ، وقرَّبَهُ الخليفة الصالح عمر بن العزيز ، مما يعطيك أن شعره كان مرآةً لسلوكه وأخلاقه ، فهو قد أربى على أبي العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ ، سواء من ناحية تخلُّقه ، أو من جهة سبْقه إلى جعل شعره قاصراً على هذه المواضيع ، فلا نقول فيه أنه أبو العتاهية المغربي ، بل نقول في أبي العتاهية أنه سابق المشرقي . رحمهما الله معاً ويسَّر لنا الوقوف على كتاب أخباره وشعره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ٢ -

كنت نشرت منذ مدة مقالاً عن سابق البربري تعرضت فيه لشيء من التعريف بشخصيته وأدبه ، وضمنته ماتجمَّع لديَّ من شعره النفيس مبادرة بتسجيله في نشرة عمومية خشية أن يتفرق أباديد كما كان قبل أن أوفّق إلى جمعه ، لاسيما وهو حصيلة سنين من البحث ، وذخيرة عشرات من الكتب التي قد لايحتوي الواحد منها إلا على البيت أو البيتين مغمورَيْن في عدة أبيات ومقطعات شتى لشعراء من كل طبقة يأتي اسم سابق بينها نادراً كالكبريت الأحمر .

وعلى كثرة المراجع التي استقيت منها ما أثبته من معلومات قليلة عنه ، وما جمعته من شعره ، بقيت هناك مراجع مهمة لترجمته لم تصل إليها يدي وأهمها تاريخ دمشق لابن عساكر ، كما أني أغفلت بعض المراجع التي لديّ ، أثناء كتابة ذلك المقال ، وهي مما كان مُعَدّاً لهذا البحث ، مُعلَّماً عليه بعلامته ، ولكني أنسيتُها ، وسبحان من لا يعتريه سهو ولا ذهول .

والآن وقد وقفت على ترجمته في تاريخ ابن عساكر ، مصور معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية (١) ، في رحلتي الأخيرة للقاهرة ، واستذكرتُ المراجع الأخرى التي فاتتني في المقال السابق ، أعود إليه ثانية فألقي بعض الضوء على معالم شخصيته المجهولة ، وأضيف إلى النبذ الشعرية التي ذكرتها له قدراً آخر من شعره ، يُكوّن مع تلك النبذ مجموعة لا بأس بها من أدبه السامي الأغراض النبيل الأهداف ، ومَن يدري فلعلي أعود إليه مرة ثالثة إذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لا سيما وتاريخ الرقة للحرّاني قد طبع فيما بلغني ، وهو مَظِنَّة لأن يحتـــوي على شيء من أخباره وآثاره .

ولسهولة الربط بين هذا المقال وسالفه أحصر البحث في عناصره الأولى وهي ، اسم سابق ونسبه وأخباره وشعره .

---

(١) وأشكر لسعادة الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب الذي أطلعني عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اسمه ونسبه :

فأما اسمه فقد انفصلت فيه على أنه سابق بن عبد الله ، وان كنيته أبو سعيد من غير خلاف ولكني وجدت في ابن عساكر أثناء بعض أسانيد روايته عنه تسمية والده بسعيد ، وانه يكنى أيضاً أبا عبد الله وأبا المهاجر وأبا أمية ، ومقتضى ما عند الذهبي في الميزان وتبعه ابن حجر في اللسان أن هذه الكُنى لسابق آخر غير صاحبنا وهو المعروف بالرقّي .

وقد ذكرهما ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (ج ني قسم ل ، طبع الهند) على أنهما شخصان مختلفان فقال في الأول : (سابق البربري روى عن مكحول وروى عنه الأوزاعي سمعت أبي يقول ذلك) وقال في الثاني : (سابق الرقّي روى عن العلاء بن عبد الرحمن وخصيب وأبي خلف وروى عنه موسى ابن أَعْيَن ومعافَى بن عمران الموصلي وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، سمعت أبي يقول ذلك » .

على أن أبي عديّ جوز أن يكون هناك ثلاثة أشخاص يعرفون بهذا الاسم ، أعني سابق بن عبد الله ، كما في اللسان (ج ٣ طبع الهند) وذلك أنه لما وجد حديث إذا مُدِح الفاسق اهتز له العرش مَرْوِياً عن سابق بن عبد الله عن أبي خلف عن أنس (ض) وأبو خلف هذا لا يُعرَف ، استبعد أن يكون الراوي عنه هو سابق الرقي ، قال لأن أحاديثه مستقيمة عن مطرف وأبي حنيفة ، وأن يكون هو سابق البربري الذى إنما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما ، فاحتمل أن يكون راوي هذا الحديث شخصاً ثالثاً مسمى بهذا الاسم ، وليت شعري ما المانع أن يكون سابق البربري صاحب الكلام في الحكمة والزهد راويةً للحديث بقطع النظر عن كونه ثقة أو ضعيفاً في روايته ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونرجع إلى ابن عساكر فنجده يقول : (سابق بن عبد الله أبو سعيد الرقي المعروف بالبربري) فيجمع له بين الوصفين البربري والرقي ، ثم يقول : (روى عن ربيعة بن عبد الرحمن وداود بن أبي هند (ومكحول) وشعبة وعبد الله ابن سعيد بن أبي هند (ومطرف بن طريف) والعلاء بن عبد الرحمن) . . روى عنه (الأوزاعي) ومحمد بن يزيد بن سنان الرهاوي وعبيد بن يزيد القردواني ومحمد بن سليم بن أبي داود وأبو بدر شجاع بن الوليد السكوني (وموسى بن أعين) و (عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي) .. الخ » فيثبت أنَّه الرقي الذي ذكر ابن أبي حاتم أنه يروي عن العلاء ابن عبد الرحمن وذكر ابن عدي أنه يروي عن مطرف فضلاً عن اشتراكه في بقية من روى عنهم من الشيوخ أو رووا عنه بذكر الجميع كمكحول والأوزاعي .

ثم يشير ابن عساكر إلى ما جنح إليه ابن أبي حاتم من أنهما شخصان اثنان وتجويز ابن عدي أن يكونوا ثلاثة ، ولكنه ينفصل على أنهما أيْ البربري والرقي شخص واحد ، ويؤكد ذلك بالروايات التي يثبتها بسنده المتصل إليه من طريق مَن ذكرهم مِن الرواة عنه والذين روى عنهم ، ومن جملتهم خصيب وأبو خلف اللذان ذكرهما ابن أبي حاتم في شيوخ الرقي وأبو حنيفة المذكور كذلك عند ابن عدي .

فوضَح أن كُلاًّ من سابق البربري وسابق الرقي إنما هما اسم لشخص واحد ، وإن تلك الكنى المختلفة هي لهذا الشخص بالذات ، وإن كان بقي معنا خلاف فانما هو في سابق المطاطي الذي قد يتوهم أنه هو صاحبنا والأمر على مارجحناه في بحثنا السابق من أنه غيره ، وهناك سابق آخر هو ابن ناجية من الرواة ولا يشتبه بمن ذكرنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما نسبه فقد اشتهر أنه البربري ، ويضاف إليه بناءً على التحقيق المار آنفاً أنه الرقي لسكناه في الرقة كما يأتينا قريباً في أخباره .

وجاء في اللباب لابن الأثير « الصحيح أن سابقاً البربري ليس منسوباً إلى البربر وإنما هو لقب له » ولا شك أن ابن الأثير يعقب بهذا التصحيح على السمعاني الذي نسب صاحبنا إلى البربر وأغرَب الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم حيث قال فيه سابق البَلَوي المعروف بالبربري ، فجعله عربياً ونسبه إلى بَلِيّ من عرب اليمن بدون تردد ، وهو مالم نعرفه لغيره .

لكنا نجد في ابن عساكر خبراً مروياً عن أبي عبيد الله بن مروان المزرابي يقول : « سابق البربري مولى الوليد يكنى أبا عبد الله ويقال أبو أمية ، أحد الزهاد المشهورين ، وله مع عمر بن العزيز أخبار » فهو قد جعله مولى للوليد (بن عبد الملك) مما يقوي أنه غير عربي ، وأنه يمكن أن يكون من البربر لِمكان فتوح الأموية في بلاد المغرب ، وهنا لا بد أن نتذكر أبيات سابق المطماطي التي رواها صاحب كتاب الذخيرة السنية في قتال البربر للروم بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك ، وقد أوردناها في المقال الأول ، وقائلها لابد أن يكون معاصراً لذلك القتال ، وليس عندنا شاعر يسمى بسابق وقته إلا صاحبنا ، فان يكُن هُو قائلها فقد نزيد اطمئناناً إلى أنه بربري وأنه من مطماطة بالذات .

وليس هذا فقط ، فقد جاء في لسان الميزان تعقيباً على ماسبق عن ابن عدي من أن صاحبنا إنما له كلام في الحكمة والزهد ما نصه : « ومقتضاه أن البربري ليست له رواية ، وليس كذلك ، فقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال هذا من أهل بربر سكن الرقة » ففيه التصريح على سبيل الجزم بأنه من البربر ، وبذلك لا يبقى لنا شك في نسبه البربري أخذاً بقواعدهم من أن من حفِظ حجةٌ على من لم يحفظ وأن المُثبِتَ مقدم على النافي ، إلى أن يقوم لنا دليل قاطع على خلاف ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخباره :

وأخبار سابق كثيرة ، روى ابنُ عساكر عن أبي أحمد الحاكم قال : أبو سعيد سابق بن عبد الله البربري إمام مسجد الرقة وقاضي أهلها ، ثم ذكر مشيخته ومن روى عنه وقال ، يعد من الشاميين . وروى ابن عساكر أيضاً عن أبي بكر الخطيب أن من جملة مشيخته الإمام أبا حنيفة ، وروى عن البخاري قال سابق البربري روى عنه الأوزاعي ، مُرسل ، يُعدُّ في الشاميين ، ثم عقب على ذلك بقوله : كذا قال ويعني أنه روى عنه مشافهة لا ارسالاً كما في تهذيب تاريخ ابن عساكر ، وجاء في أحد أسانيد ابن عساكر عنه : أخبرنا سابق بن عبد الله وكان من البكائين .

أما الأحاديث التي رويت عنه حسبما ذكر ابن عساكر فهي : ١) حديث إذا مدح الفاسق غَضِب الله عز الله ، وفي رواية إذا مدح الفاسق اهتز العرش وغضب له الرب عز وجل ، وهو الحديث الذي تكلم فيه ابن عدي على ما مر بسبب رواية سابق له عن أبي خلف وهو شخص غير معروف . وفي الرواية الثانية له عرَّفه الراوي بأنه خادم أنس بن مالك .

٢) حديث كان النبي ﷺ يوتر من أول الليل ووسطه وآخره ثم ثبت له آخرَ الليل .

٣) حديث الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبَيْنَ ذلك مشتبهات ، فمن رتع فيهن قَمِنٌ أن يأثم ومَن اجتنبهن فهو أرفَقُ بدينه كالمرتعي إلى جنْب حِمى ، ومَن ارتعى إلى جنب حِمى فيُوشِك أن يقع فيه ولكل مَلِك حمى ، وحمى الله عز وجل في الأرض الحرام .

وروى ابن عساكر أيضاً عنه هذا الخبر : (كتب مكحول إلى الحسن ونحن بِدَابِق يسأله عن الطالب والمطلوب قال فجاءه الكتاب ، إن كنت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طالباً فصلٍ بالأرض وإن كنت مطلوباً فصل على الأرض وعقب على ذلك بأن الصواب فصل على الدابة .

وفي ميزان الاعتدال للذهبي أن محمد بن عبد الله الفردواني روى عن أبيه عن سابق الرقي نحو ثلاثين حديثاً .

شعره :

روى ابن عساكر بسنده إلى أحمد بن محمد بن يزيد الأنصاري قال كنا عند محمد بن مصعب القرقشاني فقال لنا : بيت من الشعر من أخبرني لمن هو من الشعراء ، فله ثلاثون حديثاً ، وكان معنا رجل يعرف الشعر فقال : قولوا له أي بيت هو ؟ فقال محمد بن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلّي سوادَ الظلمة القمر

قال فقال الرجل هذا لسابق البربري ، قال صدق : فأي شيء بعده ؟ قال :

والعلم فيه حياة للقلوب كما تحيى البلاد إذا ما مسها المطر

قال صدق والله : وأي شيء بعد ؟ قال :

فأنتم جزر للموت يأخذكم كما البهائم في الدنيا لنا جزر

قال أبو علي الأنصاري فحدثنا بالثلاثين حديثاً التي وعده ، والذي يعرف قيمة الحديث عند رجاله وضَنَّهم به يقدر ما كان لسابق وشعره في نفس هذا الشيخ من منزلة ، حتى أنه جعل من يعرف بيتاً واحداً من شعره يستحق أن يحدث بثلاثين حديثاً .

وذكر ابن عبد البر هذا الخبر برواية أخرى جاء فيها أن أحمد بن يزيد بن مسلم الأنصاري المعروف بابن أبي الحناجر قال كنا على باب محمد بن مصعب القرقشاني جماعة من أهل الحديث وفينا رجل عراقي بصير بالشعر ونحن نتمنى أن يخرج إلينا فيحدثنا حديثاً واحداً أو حديثين ، إذ خرج إلينا فقال قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خطر على قلبي بيت من الشعر فمن يخبرني لمن هو حدثته ثلاثة أحاديث .. وفي آخر الخبر : فحدثه ستة أحاديث سمعناها معه ، وهي رواية تبرز الأهمية التي كان هذا الشيخ المحدث يعطيها لشعر سابق كسَالِفَتها ، وتزيد بالنص عن تشوف من كان بباب الشيخ من أهل الحديث إلى السماع منه ولو حديثاً واحداً ، فاذا بهم يحصلون على ستة أحاديث بسبب معرفة العراقي بشعر سابق .

وتحدث الجاحظ في البيان والتبيين عن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري فأطراهما بما اشتملا عليه من الحكمة والأمثال التي لو تفرقت في أشعار غيرهما لأغنتها ، وهذا قوله في ذلك : (لو كان شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادرَ سائرة في الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسِرْ ولم تجْرِ مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع) .

هذا بعض ما يتعلق بتقدير المتقدمين لأدب سابق وشعره ، وأذكر فيما يتعلق بذلك من طرف المتأخرين أني تحدثت عنه ذات مرة إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين على أنه من الطلائع الأولى الأدباء الذين ينتمون إلى هذا المغرب الكبير وأنشدته بعض أشعاره السائرة ، وذكرت له ما كان من احتفال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز به في حين أنه كان لا يأبه كثيراً بكبار شعراء العربية ، من أمثال الفرزدق وجرير ، فلم يملك الدكتور نفسه أن قال لي بفرنسيته الحلوة مستحسناً (oh La La !) .

واستشهاد النحاة بشعره هو مما يدخل في باب تقدير المتقدمين له ، إذ كانوا لا يستشهدون إلا بمن سلمت لغته من الشوائب ، وقد تقدم الإلماع في بحثنا الأول إلى ما كان من نسبة بعضهم له ذلك البيت الشهير الذي يُستشهَد به على نصب الفعل بأن مضمرة بعد الواو ، وهو :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وإن كان الصواب أنه لغيره ، كذلك استشهدوا في معاني اللام بقوله .

والموت تغذُو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تُبني المساكن

ولعله من قصيدة تقدمت ثلاث مقطوعات منها . وهذا البيت بالخصوص هو مما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر :

ألا رُبَّما صار البغيض مُصافياً وحالَ عن العهد الصديق المثافن

فلا تَغترِرْ ماعشت من متجمل بظاهر ودّ قد تُغطّى البطائن

وأنشد له الزجاجي في أماليه :

فلا تحفرن بيراً تريد أخاً بها فانك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً تُصيبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صنع

وهو مما يستشهد به أيضاً لجزم نُصيبْه بدون جازم بل بما في الموصول من معنى الشرط ، وأظنه من قصيدة طويلة سبق لنا رواية مقطوعة منها على نفس الوزن والقافية مما أنشده سابق لعمر بن عبد العزيز .

ومما يحسن ذكره هنا أن العلامة ابن مرزوق الحفيد قال : حضرت مجلس شيخنا ابن عَرَفَة أولَ مجلس حضرته فقرأ قوله تعالى ﴿ ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا ﴾ الآية فتطرّق لقراءة يَعْشُو بالواو مع جزم نُقيضْ وقال وجّهها أبو حيّان بكلام ما فهمتُه ، ولعل فيه خللاً ، قال ابن مرزوق فاهتديت إلى فهمه وقلت إن جزم نقيض بمَن الموصولة لشبهها بمَن الشرطية ، وإذا كانوا يعاملون الموصول مطلقاً بذلك ، فمَن ، التي يشبه لفظُها لفظَ الشرط أولىَ بذلك ، فاستحسن كلامي رحمه الله لكن الحاضرين أنكروا معاملة الموصول معاملة الشرط وقالوا كيف يكون ذلك ؟ فقلت دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني فلَه درهم دليلٌ على ذلك ، فنازعوني في ذلك ، فقلت قال ابن مالك في التسهيل (وقد يجزمه متسبب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن صلة الذي تشبيهاً بجواب الشرط) فطالبوني بالشاهد فأنشد قول الشاعر :

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً تُصبْه على عمد عواقب ما صنع

فأمسكوا . ذكرَه غيرُ واحد من مُترجميه .

ومما نسب له المرزباني برواية ابن عساكر :

يُخادع ريبَ الدهر عن نفسِه الفتى سفاهاً وريبُ الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سَوف ويهلكُ دونها وكم من حريص أهلكته مطامعه

ونسب إليه أيضاً البيت الشهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب ؟ . . الخ وهو لزُهير كما لا يخفى .

وروى ابن عساكر أيضاً قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله وليس يزجركم ما توعظون به الخ :

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا جهلاً وان نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عظني يا سابق وأوْجِز قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغُ إن شاء الله ، فقال له هات . فأنشده :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ووافيتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون شريكَه وأرْصَدْتَ قبل الموت ما كان أرْصدا

وروي له مما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحسن منسوباً إلى سابق هذه الأبيات :

العلم والحلم خَلَّتان هما للخلْق زيْنٌ إذا هما اجتمعا

صِنْوان لا يستتم حسنُهما الاّ يجمْع لذا وذاك معا

كم من وضيع سما به العلم والحـــلم فنال العَلاء وارتفعا

ومن رفيع البِنا أضاعهما أخملَه ما أضَاعَ فاتّضعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وروي مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة :

إن كنت متخذاً خليـــلا فتوقَّ وانتقِد الخليـــلا
من لم يكن لك منصفاً في الود فابْغِ به بَديـــلا
وعليك نفسَك فارعهـــا واكسب لها عملاً جميـــلا
ومن استخف بنفســـه زرعت له قالاً وقيـــلا
وأقلّ ما تجـــد اللئيم عليك إلا مُستطيـــلا
والمرء إن عرف الجميـــل وجدتَه يأتي الجميـــلا
ولربمـــا سئل البخيـــل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـــل إليه يكره أن ينيلا
ولذاك لا جعـــل الإلـــهُ له إلى خير سبيلا
يا مبتني الدار الـــتي هو مسرع عنها الرحيلا
إن لم تُنِل خـيراً أخا ك فكن له عبداً ذليلا
وتجنب الشـــهوات واحـــذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ســـاعة قد أورثت حزناً طويلا

وله أيضاً هذه القصيدة في الاتعاظ بالموت وأحواله رواها ابنُ عساكر :

تأوَّبني هم كثـــير بلابلُه طروقاً فغال النومَ عني غوائله
فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت باب أنت لا بد داخله
أيأمَنُ ريب الدهر يا نفسُ واهن تجيش له بالمفظِعات مَراجلُه
فلم أر في الدنيا وذو الجهل غافل أسيراً يخاف القتلَ واللهوُ شاغله
فما باله يفـدي من الموت نفسه ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله
ولا يفتدي من موقف لو رَمى الرَّدى به جبلاً أضحت سَراباً جنادله
وبعد دخول القبر يا نفس كربة وهول يشيب المُرضَعين زلاله
إذا الأرض جفت بعد نقل جبالها وخلي سبيلَ البحر يانفس ساحلُه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا يرتجي عوناً على حمل وزره ... مسيء وأولى الناس بالوزر حامله
إذا الجسد المعمور زايَل روحه ... خوَى وجمال البيت يانفس أهلُه
وقد كان فيه الروحُ حيناً يزينُه ... وما الغِمد لولا نصلُه وحمائله
يُزايلني مالي إذا النفس حشْرجت ... وأهلي ، وكدحي لازمي لا أُزايلُه
إذا كل عند الجهد يانفس منطقي ... وعاينت عند الموت ما لا أحاوله
ويغسل ماباالجلد من ظاهر الأذى ... ولا يغسل الذنب المُحالف غاسلُه
ومن تُفلِت الأمراضُ يوماً فانه ... سيوشك يوماً أن تُصاب مَقاتِله
وقد تفلت الوحش الحبال وربما ... تقبضت الوحشيَّ يوماً حبائله
إذا العلم لم تعمل به صار حجة ... عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله
وقد ينعش الذكر القلوبَ وإنما ... يكون حياةَ العُود في الماء وابله
أرى الغصن لاينمى إذا جف أصله ... وليس بباق من أبيحت أوائله
فان كنت قد أبصرت هذا فانما ... يصدق قولَ المرء ما هو فاعلُه
ولا يستقيم الدهرَ سهم لوجهه ... به مَيل حتى يقوَّم مائله
وفيك إلى الدنيا اعتراض وإنما ... تُكال لَدى الميزان ما أنت كائلُه
فلا تنتكثْ بعد الهُدى عن بصيرة ... كما نكث الحبل المضاعَف فاتِله
وتطلب في الدنيا المنازل والعلا ... وتنسى نعيماً دائماً لا تزايله
كمن غره لمع السراب بقيعة ... فقصَّر عن ورد تجيش مناهله
وقد خانت الدنيا قروناً تتابعوا ... كما خان أعلى البيت يوماً أسافله
وتصبح فيها آمناً ثم لم تكن ... لتأمن في وادٍ به الخوف نازله
وقد ختلتنا باللَّطيف من الهوى ... كما يختل الوحشيَّ بالشيء خاتلُه
رضينا بما فيها سفاهاً ولم يكن ... يَبيعُ سمينَ اللحم بالغث آكلُه
وعاقبةُ اللذات تُخشى وإنما ... يكدِّر يوماً عاجلَ الأمر آجلُه
وإن فرحت بالمرء يوماً حلائلٌ ... فلا بد يوماً أن تُساء حلائله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكم من فتى قد كان في شِرَّة الصِّبا فأُقصي بعد العذْل عنه عواذله
إذا ما سمـــا حق إليك وباطل عليك فلا يذهب بحقـك باطله
وقد يأمل الراجي فيكذب ظنَّه أمورٌ ويلقى الشيءَ ما كان يأمُلُه

وله هذه الأبيات من الرجز في مدح رجل اسمه عون ذكرهـا في تهذيب تاريخ ابن عساكر وقال انها مما رواه الحافظ من طريق أبي بكر الجوزقي ولم يذكر قصتها :

بُورك في عون وفي أعوانه
وفي جواريه وفي غِلمـانه
وبارك الله على دعـــائه
أطعمنـا عون على خِوانه
يعطي وما يقلع عن جفـانه
وعن هـــداياه وعن إيوانه

ولا توجد هذه الأبيات في مصوّر الأصل الذي اطلعنـا عليه ، ومن تفاريق الأبيات التي وقفنا عليها له في جامع بيان العلم لابن عبد البر ممـا لم يتقدم قوله :

والعلم يشفي أن استشفى الجهول به وبالدواء قديمـــاً يُحسَم الداءُ

* * *

قد قيل قَبْلي في الزمان الأقدم إني وجـــدتُ العلم بالتعلم

ونحفظه : إنا وجدنا .

* * *

وروي فيه أن سفيان الثوري كان ينشد متمثلاً ببيتين له من لاميته الطويلة المارة آنفاً وهما :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أُوتيت علماً فإنما يصدّق قول المرء ما هو فاعله

وفيها مخالفة قليلة لرواية القصيدة .

وأخيراً وليس آخراً بحول الله هذه تسعة وستون بيتاً من شعر سابق تضاف إلى ثمانية وثمانين بيتاً تضمنها البحث السابق ، فيكون المجموع سبعة وخمسين ومائة ، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً إن شاء الله .

— ٣ —

كتبتُ عن سابق البربري قبل هذا مرتين :

وكلتا الكتابتين كانتا بحثاً تناول جانباً من حياته الشخصية ، وجلّى أدبه الحِكْميَّ الرائع الذي كان مغموراً بين أخبار الرواة ورجال الحديث وأهل الزهد في عديد من الكتب المخطوطة والمطبوعة ، المَظانّ وغيرِ المظان .

ولم تكن الكتابة الثانية إعادة لشيء مما جاء في الكتابة الأولى ولا تكراراً لخبر أو أثر أو شعر ، بل إلحاقاً واستدراكاً لما فاتني من ذلك ولم أذكره فيها لأني إنما وقفتُ عليه بعدُ ، وتنسيقاً له مع ما سبق ذكره حتى انني عددت ما رويته من شعره في الكتابة الثانية ، تسعة وستين بيتاً ، على ما تضمنته الكتابة الأولى وهو ثمانية وثمانون بيتاً فكان المجموع ١٥٧ بيت أو بيتاً بحسب تقديم العدد الأصغر أو تأخيره .

وقلت حينئذ ومن يدري لعلي أعود إليه مرة ثالثة إذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لاسيما وتاريخ الرقة للحراني قد طبع فيما بلغني ، وهو مَظِنة لأن يحتوي على شيء من أخباره وآثاره .

وها أنا ذا الآن أعود إليه بالفعل للمرة الثالثة ، بعد أن وقفتُ على ما ذكره صاحب تاريخ الرقة عنه ، وهو شيء قليل بالنسبة إلى ما قدمته عنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقلاً عن غيره ، ولا سيما تاريخ ابن عساكر ، وما ذكره عنه أيضاً صاحب خزانة الأدب مشفوعاً بخبر لابن عبد ربه في العقد الفريد .

قال في تاريخ الرقة : سابق بن عبد الله الرقي يكنى أبا سعيد ، حدثنا هلال بن العلاء حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا موسى بن الحسن حدثنا سابق أبو سعيد ـ قال عمرو وكان إمام الرقة قبل أجلح ـ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : إلا من الصدقة ، وعلم يُنتفَع به ، وولد صالح يدعو له .

سمعت إبراهيم بن أحمد بن عبد الكريم الحراني ابن أبي حميد يقول سألت محمد بن سليمان عن سابق البربري قال هذا كان قاضياً بالرقة ، حدث عنه محمد بن سليمان بن أبي داود وحدث عنه عبيد الله بن يزيد بن سنان الرهاوي عن أبي حنيفة .

وحدث عنه شجاع بن الوليد فقال : حدثنا أبو سعيد الجزَري حدثنا علي بن عثمان النفيلي حدثنا أبو كامل مولى الغازِ بين ربيعة قال سمعت سابق البربري ينشد مكحولاً وهو في الغزو :

يا نفسِ كلُّ قابر مقبورُ
ويهلك الزائر والمَزُور
ويَقبِض العارية المُعير
ليس على صَرْف الروا غمور
كم من غني مكثرٍ فقيرُ

حتى انتهى إلى قوله :

والصدق بِر والتقى تطهير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبر معروف به المبرور
وذو الهوى يسوقه المقدور

فقال مكحول : لا .

هذا ماتضمنه تاريخ الرقة عنه ، ونجده فيما يتعلق باسمه يجعله سابق بن عبد الله ويكنى أبا سعيد على ماسبق ترجيحه ، ويزيدنا حديثاً آخر من روايته وهو حديث الصحيح : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولم يتقدم فيما أثبتناه من حديثه ، ويؤكد روايته عن أبي حنيفة كما ذكره الخطيب في مشيخته .

ويروي لنا من شعره ثمانية أبيات من مشطور الرجز ، هي في الواقع من رجزية طويلة على ما يظهر بدليل قول الراوي عنه ، (حتى انتهى إلى قوله) :

ونلاحظ اعتراض مكحول عليه في البيت الآخر بقوله لا ، لما يُشتَم منه رائحة الجَبْر .

وجاء في خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي عند ذكر الشاهد : والموت تغذو الوالدات سخالها ، البيتَ المتقدم في الكتابة الثانية ، ما نصه : (وسابق البربري هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، له أشعار حسنة في الزهد وهو من موالي بني أمية سكن الرقة ، ووفد على عمر بن عبد العزيز وله معه حكايات لطيفة ، روى عنه مكحول وموسى بن أعين والمعافى بن عمران ، وغيرهم ، والبربري نسبة إلى البربر وهي بلاد كثيرة في المغرب ، قال ابن الأثير في الأنساب : ليس سابق منسوباً إلى البربر ، وإنما هو لقب له) ، ويتضافر هذا النص مع ما قبله في اسم الرجل وكنيته ، ويجزم بأنه من موالي بني أمية ، وهو ما سبق ذكره عن ابن عساكر نقلاً عن المرزباني مع تعيين صاحب ولائه وهو الوليد منهم ، وبذلك قويت حجة من يقول انه غيْر عربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي هذا النص خطأ وهو قوله روى عنه مكحول والصواب أن مكحولاً من مشيخته ، وان سابقاً هو الذي روى عنه كما سبق مراراً ، ويؤيده أيضاً اعتراضه عليه في البيت الذي تقدم من رجزيته لمَّا أنشده إياها ، وأما قول ابن الأثير الذي أورده صاحب الخزانة في نفي نسبة صاحبنا إلى البربر فقد سبق لنا الكلام عليه .

وما ذكره عن ابن عبد ربه هو حكاية قيل ان سابقاً أخذ معنى قوله : والموت تغذو الوالدات سخالها من مضمونها وهي هذه :

« وفد عبد العزيز بن زُرارة سيدُ أهل الكوفة على معاوية ، فخرج مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى معاوية ، فقال معاويةُ لأبيه زرارة : أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب . فقال زرارة يا سيدي هو ابني أو ابنُك ، فقال معاوية انه ابنك ، قال للموت ما تلد الوالدة ، أخذه سابق البربري فقال :

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن

هذا وفي طبقات الشعراء لابن المعتز ذكرٌ لسابق في عبارة تشبه عبارة الجاحظ المتقدمة عنه وعن صالح بن عبد القدوس من أنها اختصا بقول الشعر في الحكم والأمثال ، وذلك أثناء ترجمته لمحمود الوراق وهي قوله : (وشعر محمود كثير ، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح ابن عبد القدوس وسابق البربري) .

ونظراً لاشتباه شعر ابن عبد القدوس بشعر سابق ، أنشد ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم هذا البيت متردداً بين نسبته لسابق أو لصالح بن عبد القدوس :

وإذا حملت إلى سفيهٍ حكمةً فلقد حملت بضاعة لا تَنفق

ومما أنشد له ابن عبد البر وفاتنا أن نذكره فيما سبق :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذا زجرتَ لجُوجاً زدته علقاً ولجَّت النفس منه في تماديها
فمُدَّ عليه إذا ما نفسُه جمحت باللّين منك فان اللين يثنيها

ويشبه أن يكون هذان البيتان من قصيدة واحدة سبق ذكرُ مقطّعات منها على مثل الوزن والقافية . وله أيضاً مما أنشده ابن عبد البر :

موتُ التقيِّ حياة لا انقطاع لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

نعم إن حياة العلماء العاملين لا انقطاع لها بالموت فذكرُهم باق على الأيام ومنهم صاحبنا الذي مرَّ على مَوْته أكثرُ من اثني عشر قرناً وهو ما يزال يعطِّر المجالس بذكره وتحلّى الصحف بآثاره .

وبإضافة ما في هذا المقال الثالث من أبيات شعرية وعددها اثنا عشر ، إلى ما تقدم ذكره من أشعارِ سابق ، يصير الجميع مئة وتسعة وستين بيتاً ، والمنة لله .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net